# حكايات من مدرسة

مجموعة قصصية

بديع القشاعلة

# حكايات من مدرسة

د. بديع القشاعلة

# حكايات من مدرسة

**دكتور بديع القشاعلة**

**حقوق الطبع محفوظة للمؤلف**

نسخة الكترونية (2018)

فلسطين

النقب - رهط -

هاتف:0509316282

Badeea75@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

( وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا )

(أية 80 من سورة الإسراء)

# فهرست


الطيور المهاجرة ..... 7
فرحة تليذ ..... 8
الوظائف البيتية ..... 11
ديك الحبش ..... 16
الصفعة ..... 17
العقاب ..... 20
أيها المعلم ..... 22
الصف الأول ..... 24
في الساحة ..... 26
سالم ..... 28
يا صباح يا فتاح ..... 32
حيرةٌ ..... 34

# الطيور المهاجرة

كان يوم جميل، والطقس لطيف والسماء صافية، والربيع يغطي ملامح الأرض .. وكنت أسير إلى مدرستي بقميصي الأزرق الذي يميل إلى البياض، وفوق ظهري أحمل حقيبتي .. وكان الأطفال جميعهم يسيرون إلى حيث أسير، وكنت أنتظر أصدقائي عند الوادي الصغير الذي اختفى منذ أمدٍ بعيد، إلا أني أراه في مخيلتي حتى هذه الساعة ..كنا نجتمعُ ونسيرُ مهرولين إلى المدرسة .. وأبو العال، ذلك العجوز الذي افتقدته منذ زمان، يقوم ومعه الجرس الحديدي ويدق بهمعلناً ساعة الإنتظام في الساحة الكبيرة .. وكنا نقف مصطفين كأسراب الطيور المهاجره، نؤدي حركات رياضيه غريبة .. إنتظم، أسبل، إستعد، استرح، وهكذا .. يقولون أن هذه التمارين تساعدنا على فهم الدروس بصورة أفضل ..لا أعلم كيف؟ ولكن قد يكون ! ثم بعد ذلك نسيرُ بسروب منتظمة إلى الصفوف .. ونجلس في الصف ويدخل المعلم ..

***

## فرحة تلميذ

كنتُ في أحد الأيام مع أبي وأمي واخوتي في رحلةٍ عائليةٍ، وبينما نحنُ نلعبُ ونركضُ تعثرت قدماي فسقطتُ على حجرٍ كبيرٍ، فجرحتُ كتفي.. كان جرحي عميقًا وكبيرًا.. هذا ما رأيته في ملامح أبي وهو يتفحصني، لقد ارتعب عندما رأى الجرح وكذلك أمي.. قال لأمي لا بد من المستشفى، فأمسكت أمي بجرحي واحتضنتني وساق أبي مسرعًا إلى المستشفى.. لقد أرعبني خوفهم.. وفي الحقيقة، في حينها لم أشعر بالألم بعد، ولكني عندما وصلتُ المستشفى شعرتُ بألمٍ شديدٍ في كتفي ورأسي وعنقي.. وقد خاط الطبيب جرحي وأطلقوا سراحي بعد كثير من الفحوصات.. عدتُ إلى البيت ويا للمفاجأة.. لقد جاءوا جميعا ليطمئنوا عليّ، كلهم كانوا يقولون لي الحمد لله على سلامتك.. مسكين كيف حدث هذا.. ويمسحون بأيديهم على رأسي.. كم كنت سعيداً بهذا الأمر.. أصدقائي في الحارة تجمعوا من حولي.. جاءت نساء الحارة لتطمئن علي، واشترى لي أبي كل ما أريد وكانت أمي تبدل ملابسي.. كنت سعيدًا جدًّا.. يا لسعادتي! وأفضل ما

في الأمر أني معفى من الذهاب إلى المدرسة، كلهم يذهبون إليها إلا أنا، فأنا مصاب وجرحي مخيط.. وفي خضّم سعادتي هذه تذكرت أبناء صفي، لقد اشتقتُ اليهم.. لماذا لم يأتون لزيارتي؟ لعلهم مشغولون بحل الوظائف.. وسارت الأيام، وشفي الجرح وآن أوان العودة إلى المدرسة .. بصراحة اشتقتُ إليها، واشتقتُ إلى كل من فيها.. وفي الصباح لبستُ ملابسي وتهيأتُ للذهاب إليها، و قلتُ في نفسي سيستقبلونني بسعادة وسأحكي لهم حكايتي، وانتظرتُ هذه اللحظة، وجاءت معلمة الدين.. كانت متجهمة على غير عادتها، فقلتُ في نفسي ستسألني عن حكايتي وسأسردها لها كلها، وقد شعرتُ بغبطة وانتظرتُ السؤال.. ولم تسألني.. توجهت إلي دونما ابتسام وقالت لي:

- أين الوظيفة؟

فقلت لها:

-أي وظيفة؟.. كنتُ غائبًا..

فاستشاطت غضبًا.. وأمسكت بمسطرتها.. وأشاحت بها في وجهي.. وضربتني دونما سؤال..

فسقطت دمعةٌ من عيني وجلستُ دونما حراك.. وهبطتْ سكينةٌ على المكان..

***

# الوظائف البيتية

كنت حينها في الثامنة من عمري وكنت أذهب إلى المدرسة مع أقراني .. أهرولُ في ساعات الصباح الباكرة أسابق الفراشة الجميلة.. كانت الفراشة ترفرف بجناحيها من حولي حرة طليقة.. سعيدة كل السعادة.. فهي لم تذهب في حياتها إلى المدرسة ولم تكن تجلس الساعات الطوال لحل الوظائف البيتيه... وليس لها معلم يعاقبها، إن هي لم تحل الوظيفة.. لا أحد يقول لها افعلي هذا أو ذاك، بل لها أن تفعل ما تشاء.. ثم نفترق وأذهب في سبيلي، وأصل إلى المدرسة فادخل الصف ويبدأ الدرس الأول فالثاني فالثالث وهكذا.. وما أن يدق الجرسُ معلنًا نهاية الدرس الأخير، حتى أطيرُ فرحًا.. وكان قلبي يرقص متهللًا وتعلو وجهي الإشراقة.. وعندما أصل إلى البيت، كانت أمي تتلقاني بصوتها الحازم .. الوظائف البيتيه.. اللعنة على الوظائف البيتيه! فلتخطف الشياطين كل الوظائف البيتيه! أذكر ذلك اليوم الذي أعطاني فيه معلمُ الحساب وظيفة بيتيه طويلة ومعقدة.. بصراحة لم أفهمها ولا أدري كيف هوَ يفهمها.. ولكن

لا مفر.. إلى معلم الحساب المستقر.. من لا يحل الوظيفة يضربه ضربًا مبرحًا.. أو على الأقل يصرخ فيه صرخة تخلخل العظم.. كنتُ أخاف منه كثيرًا وكنتُ أداوم على حل الوظائف كلها.. كيف لا وأنا أراه كل يوم يسخط من لا يحل.. وفي ذلك اليوم أخذت كتاب الحساب وتوجهت إلى أبي علّه ينجدني من هذه الورطة.. فتمعن أبي في الكتاب ثم نظر ثم عبس وبسر.. وتغير لون وجهه وتنحنح ثم تحرك من مكانه مرتين.. عرفتُ أنه يجد صعوبة بالغة في فهم المسألة.. فقال لي وهو يحرك حاجبيه:

- ما هذا الكتاب؟ كيف تتعلمون هذه الأشياء؟ أنا لا افهم شيئًا منه على الإطلاق..

ثم أعطاني إياه وقال:

- اذهب إلى أمك ستشرح لك المسألة أفضل مني..

فعرفت حينها أني لن أجد حلًا.. ولم أستطع حل الوظيفة المعقدة.. ونمتُ من ليلتها خائفًا مرتعدًا من ذلك المعلم.. غداً سيسخطني لا محال.. وحلمتُ في نومي أني أركضُ في وادٍ طويل وملتوي وكان معلم الحساب

يركضُ خلفي وفي يده عصاة غليظة يلوح بها.. والغريب في الأمر انه كان على صورة حمار ضخم.. له أذنان طويلتان وأنف مدبب.. كاد أن يفتك بي لولا أني أفقتُ من نومي.. وذهبتُ إلى المدرسة.. ودخلتُ الصف لأكلم أحدًا.. كل ما يجول في خاطري تلك الوظيفة البيتيه التي لم أحلها.. فأنا اليوم هالك لا محال! ودخل معلمُ الحساب.. ذلك المعلم الضخم ذو الفكين الكبيرين.. عيناه جاحظتان وأنفه طويل معقوف وكرشه مدلاة فوق حزامه.. دخل إلى الصف وصوت هدير أنفاسه يسمع من بعيد.. جلس على الكرسي وأخذ ينظر في يوميات الصف.. ثم عطس فتطاير رذاذ عطاسه في أرجاء الغرفة.. ومسح بكم قميصه ما تتطاير على شفتيه من سوائل.. ونظر إلينا وتنحنح وقال:

- يا الله! توكلتُ على الله! وقام من مكانه بعنف واستطرد.. الوظيفة! تفتيش! فارتعدتُ حينها.. وأصابني الذهول وانتظرتُ مصيري المحتوم.. وبينما أنا على هذا الحال أحبسُ أنفاسي بصعوبة.. وإذا بمدير المدرسة

يدخلُ إلى الصف دون استئذان.. كان مبتسمًا وبرفقة شخص آخر.. يحملُ حقيبة سوداء كبيرة.. صامتًا لا يتكلم.. قال المدير بصوت هادئ:

- السلام عليكم يا شطار!

فرددنا عليه بصوت واحد:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته!

ثم نظر إلى المعلم الذي وقف متسمّرًا في مكانه دون حراك وقد ارتسمت على شفتيه المنتفختين ابتسامة صفراء..

فأكمل المدير:

- أقدم لكم المفتش.. سوف يحضر عندكم الدرس..

ثم عاود ينظر إلى المعلم وكأنه يقول له:

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

وجلس المفتش في الصف وذهب المدير.. وتنحنح معلمُ الحساب ودب فيه النشاط.. وبكلمات يملؤها اللطف والحنان قال لنا:

- والآن يا شطار! تعالوا بنا نتعلم درس القسمة على إثنين..

وراح يشرح الدرس وهو سعيدًا مبتسمًا والمرح يملأ روحه.. والغريب في الأمر أننا تعلمنا هذا الدرس قبل يومين.. هذا لا يهم! ما يهمني أنه لن يفتش على الوظيفة.. والمهم أني نجوت والحمد لله.. الحمد لله الذي استجاب لدعائي.. وعادت ابتسامتي وأخذتُ اردد مع الصف ما يقوله معلم الحساب..

***

# ديك الحبش

كان المعلمُ يلوحُ بيديه الغليظتين وأصابعه المدببة المكسوة بالشعر الكثيف وجبينه المنكمش يندسُ عرقًا، وصوته الأجش يرج المكان، وقد أنتفخت أوداجه وأحمر أنفه وأنغمرت عيناه في وجنتيه، فتذكرتُ حينها جيراني وديك الحبش الذي كان يزغرد في الليل والنهار وهو يجول في باحة بيتهم الواسعة، وتخيلته يقفُ مكان المعلم ويزغرد أمامنا ونحن ننظرُ إلى عرفه الأحمر المتدلي بتفحص وأهتمام.. لا أذكر حينها عن أي شيء كان المعلم يتكلم، إلا أن صوته أثار إهتمامي وذلك الصفير الذي يخرج منه لا أعلم من أين.. كان الهدوء يغطي المكان ولا يسمع لنا حركة، والمعلم لا يزال ينشد سيمفونيته العجيبه، ولا يزال ذلك الصفير ينشد لحنه الرتيب، وكانت الحروف تتناثر من فمه وتختلطُ برذاذ لعابه الذي يملأ المكان وبين الفينة والأخرى، كان يمسح أنفه بقوة وكأنه يريد إقتلاعه من مكانه, فيزداد إحمرارًا ويزداد اقترابًا من ذلك الديك الذي لا تزال زغاريده ترنُ في أذني حتى يومي هذا..

# الصفعةٌ

كنتُ حينَها في الصفّ التّاسع الإعداديّ.. وكانت صفوفنا جميلة.. مصطفّة كَسِرْبٍ من الطيور المهاجرة من الشمال إلى الجنوب.. وكان صفّي في آخر السّرب وكنا نسمع أصوات العصافير وهي تداعب أوراق الشجر، ونشم رائحة التراب المبلول.. وكانت مدرستنا قريبة من المدرسة الإبتدائية وصفوف الأوائل.. فكنا نصغي لصوت المعلّمات وصياح الأطفال وهم ينشدون الأحرف الأبجدية.. ألفٌ! باءٌ! تاءٌ! ثاءٌ.. وكانت أصوات الأطفال تشكلُ لحنًا جميلًا ومتناسقًا.. يذكرني بصوت الأوركسترا في مسرح «اليكساندرينسكي» في سانت بطرسبورغ.. رغم الفارق الكبير بين الأماكن.. وأذكر في تلك الفترة حين كنّا نخرج كالقطيع متّجهين صوب حنفيّة الماء لنشرب ونستريح من تعب الدرس.. فبين الدرس والدرس كنا نستغل خمس دقائق نشرب الماء فيها ونتنفس الصعداء.. كانت حنفية الماء بعيدة عن الصف ويفصل بيننا وبينها ساحة رملية مليئة بالحصى الصغير.. هذه كانت

عادتنا.. وليس لنا من ترفيهٍ سوى هذا الأمر.. وفي يوم من أيام الصيف الحارّة والشمس تكاد تقبل جبين الأرض والحر ّشديد، خرجنا كعادتنا لنشرب ونستريح من ملل الدرس وصخب المعلم.. وبينما نحن على هذا الحال وأذا بالطلاب يفرّون فرارَهُمْ من قَسْوَرَة.. هرب الجميعُ كالفئران حينما ترى قطًّا شرسًا شاغرًا فاه.. وأصواتهم تدوّي في الأفق: الأستاذ سمير! الأستاذ سمير! كان الأستاذ سمير مناوبًا في ذلك اليوم وهو معلم شرسٌ لا يرحم أحدًا.. طويل القامة عريض الكتفين ذو عينين جاحظتين تكثر فيها الشعيرات الدموية.. وأنفه معقوفٌ ورقبته طويلة وتميل إلى الإعوجاج.. ولو رأيته لمُلِئْتَ منهرعباً ولولّيت منه فرارًا.. صوته كان كالرعد ترتجف له الأوصال وتنكمش منه الأحشاء.. وكأنه عزرائيل أو شيطان.. وكنت أنا من بين الطلاب.. وخفتُ كما خافوا وارتعبتُ كما أرتعبوا.. إلا أنّي أبيتُ على نفسي الهرب.. وسرتُ بخطوات عادية متجهًا إلى الصفّ وقد تسارعت دقّات قلبي بشكل لم أعهدُه من قبلُ... هه! يا لي من أحمق! كان لا بُدَّ لي أن أهرب كما

هربوا.. ولكني تذكّرت حينما كنت في الصف الرّابع الإبتدائي، حينما تعلمنا درس «الصّبيّ وعمر بن الخطّاب» حينما مرّ عمر رضي الله عنه بصبيان يلعبون فهربوا إلّا عبد الله بن الزبير ، فقال له عمر: لِمَ لم تفرّ مع أصحابك؟ قال: لم يكن لي جرم فأفرَّ منك، ولا كان الطريق ضيقًا فأوسّع عليك! وكنت أظن المعلم سيسألني ذلك السؤال فأجيبه ذلك الجواب.. هه! أحمق! وسرت بخطواتي المرتجفة أصارع الهرب حتى دخلت صفي وجلستُ في مكاني.. وبعد لحظات دخل ذلك المعلم وقد إنتفخت أوداجُه وتطاير شعره وجحظت عيناه واحمرّ أنفه.. وسار باتجاهي ووقف بجانبي، وكنت أظنه سيكلمني.. فنظرت إليه لأسمع سؤاله، فرفع يده إلى السّماء وهوى بها على وجهي.. وطراخ!!

ودوّت صفعةٌ في أرجاء المكان وأهتزّت لها أوتار قلبي وانكسر شيء ما في داخلي.. وخرج المعلم من الصف، وبقيت دمعة في مقلتي أصارعها وأكفكفها.. وما زلتُ أسمع أصوات الأطفال ينشدون خلف المعلمة أحرف الهجاء برتابة.. ألفٌ! باءٌ! تاءٌ! ثاءٌ!

# العقاب

كان الجو حاراً وشعاع الشمس يلمعُ من بعيد على أرصفة الشارع والسراب ينتشر في كل مكان, رغم أن اليوم قد بدأ لتوه والساعة ما زالت السابعة والنصف صباحاً ..كان فنجان القهوة في يدي وكنتُ واقفاً أرقبُ الأطفال وهم يسيرون متجهين إلى صفوفهم في أحدى المدارس الإبتدائية.. وكانت الذكريات تعودني وتغازلني وتعيديني إلى ذلك الزمان حين كنت أحمل حقيبتي على ظهري أعد البلاطات الجميلة التي رصفت الطريق المؤدي إلى صفي .. وأصحابي من حولي نتسابق إلى الصف لنجلس في مقاعدنا ننتظر المعلم .. وفجأة وعلى صوت تلميذ من المدرسة أفقت من ذاكرتي .. كان يصرخ ويقول:

- بتوب.. بتوب .. بتوب .. أمانه لا ..أمانه لا...

فتفقتُ أبحث عن مصدر الصوت حتى وجدته .. وإذ به تلميذ أعتقد أنه في الصف الثالث .. يسير على أطراف أصابعه .. يلحقُ بأذنه التي

أمسك بها المدير .. وكأنه يريد إقتلاعها .. لولا أن التلميذ يتبعها بسرعة ... وصوته يملأ المكان:

– بتوب ... بتوب .. بتوب ... خلص أمانه...

والمدير يتابع عقابه كأنه يشرب قهوته بصورة عادية دون أن تظهر على ملامحه تعابير أو أحاسيس من الشفقة ... أحزنني هذا المشهد ... وحينها ما عادت إلَيَّ ذاكرتي وما عادتْ تغازلني...

***

# أيها المعلم !

تعمدتُ أن أبدأ كلامي بسؤال, لأن سؤالي كثيراً ما يخالج العقول باحثاً عن جواب مرضي... أنا لا أشكك ولو للحظة بأن الجواب ليس بالأمر البسيط ولو بدا لأول وهلة أنه هين ... فالإجابة على هذا السؤال تحتاج إلىالوقوف كثيراً والتمعن ملياً فيما يفعله المعلم بصورة عامة في المدرسة ... عندما يطرح هذا السؤال تعلو وبصورة لا إرادية أفكار ومصطلحات كثيرة وتتضارب الأطروحات والتساؤلات في مخيلة المعلم ... من هو المعلم القوي؟ من هو المعلم الصارم؟ من هو المعلم الجيد؟ ما المقصود بالاحترام؟ وما الفرق بينه وبين الخوف؟ فالمعلم أولاً يحتاج إلى أن يجيب على هذه التساؤلات حتى يتمكن من الإجابة على السؤال الأول ... فعلاً أيها المعلم ! لماذا تضرب الطالب؟ والمعلم دائما على استعداد أن يبرهن للجميع أنه على حق وأن الضرب وسيلة هامة تساعد المعلم على التعامل مع الطلاب في الظروف القائمة.. وهو يضع الفرضيات والمسلمات التي تقود تفكيره وسلوكه كأن

يقول, هم تعودوا على الضرب... لا يسمعوا الكلام إلا بالضرب... حتى أني سمعت مربياً فاضلاً يقول, هذه أمة لا ينفع معها إلا العصا ... والعصا لمن عصى...

طبعاً أنا لا أحاول أن أعطي الحلول ... وأعلم أن من يده في الماء ليس كمن يده في النار ... طبعاً لا أتفلسف .. ولكني أضع التساؤلات أمامك أيها المعلم الفاضل ... أضع حيرتي بين يديك ... ما الذي يفعله الضرب بعقول الطلاب؟ ما الفائدة المرجوة من الضرب؟ هل هناك بديل؟ ما هو شعورك وأنت تفعل ذلك؟ وما شعورك وأنت ترى إبنك يُضرب أمامك؟

مرة أخرى أنا لا أُذنب أحداً ولكني محتار وأبحث عن جواب ... فأيها المعلم! لماذا تضرب الطالب؟

***

# الصف الأول

أذكر ذلك اليوم جيداً حين كبر طفلي وصار يمشي ويركض ويتكلم .. وأذكر كلماته الأولى التي كان يناديني ويحاورني بها ويشرح لي أمور كثيرة لا أفهها .. وكانت أسئلته كثيرة ومحرجة وكنت كثيراً ما أتهرب منها... وها هو اليوم في صف "البستان" قد كبر وتعلم أشياء كثيرة وجميلة.. وحين كان يركض أمامي كان قلبي يركض خلفه وتتبعه أنفاسي, وكم كنت سعيداً به.. فها هو يقترب من صف الأول .. وقريباً سيحمل دفتراً وقلماً وكتاب .. وسيتعلم القراءة والكتابة .. ما أجملها من لحظات ... كنت أحدثه عن المدرسة وعن جمالها وحلاوتها .. وحين كنت أحدثه كانت نظراته تتعلق بي وبسمته لا تفارقه وعلى وجهه إشراقة جميلة .. حتى أنه صار يقول لي :

- "متى المدرسة ؟ أريد كتاب ودفتر وقلم ... "

وكنت أعده بذلك قريباً ... يا لها من لحظات جميلة ..

وفي يوم من الأيام وحين كنت أجلس في مكتبي أطالع بعض الكتب والأوراق ... جاءني مسرعاً وكأن العفاريت تطارده .. ودمعته في عينه وصوته مخنوق ووجه شاحب.. فانتابني الخوف والقلق , وقلت بتوتر:

- " ماذا حدث ؟ ماذا حدث؟"

فقال وهو يعاند البكاء :

- "لا أريد الذهاب للمدرسة.. "

فسألته بإستغراب شديد :

- " لماذا ؟ "

فقال وهو يبكي:

- قال لي أبن عمي الذي يتعلم في الصف الأول .. يا ويلك من الصف الأول .. سوف "يسخطوك" المعلمون في الصف الأول ..

حينها صمتُ وأطرقتُ أصغي لأفكاري ... وساد الهدوء في المكان ...

***

# في الساحة

كانت مدرستنا جميلة وساحاتها بديعة ومبانيها تنتشر على أرض مسطحة واسعة وتحذوها الأشجار من كل جانب .. وطرقاتها المرصوفة تتفرع بين الصفوف كالإخطبوط.. وكنا حينما نسير إلى صفوفنا نعبر هذه الطرقات, وبأقدامنا الصغيرة نقفز من بلاطة إلى أخرى.. نعدها حيناً وحيناً نقفز لمجرد أننا نريد أن نطير في الهواء .. وعندما كنت أقفز كان قلبي يرفرف فرحًا وملامحي تغمرها السعادةُ.. وكنا في ساعات الصباح الباكرة نصطف في الساحة الكبيرة, وأشعة الشمس تلفحُ بشرتنا القمحية وظل الأشجار الكبيرة يغطي ملامح الطريق.. والنسمات الباردة تداعب وجوهنا.. وكنا كعادتنا في مثل هذا الوقت نقف في صفوف وأسراب ذات ترتيب خلاب.. صفوف البستان تليها صفوف الأول فالثاني فالثالث إلى الثامن.. وكان المشهد يجذب إنتباه المارة.. ولو أطلعت عليه لعلت وجهكَ إبتسامة واسعة, فالساحة مليئة بالأطفال بقاماتهم المختلفة من الأقصر إلى الأطول .. وكنت حينها في

الصف الرابع.. أنظر إلى يساري فأرى الصف الثالث ومن خلفه الثاني فالأول فالبستان فترتفع هامتي وينتفخ صدري فتعلو وجهي الإبتسامة.. ثم أنظر إلى يميني فأرى الصف السادس يليه السابع ثم الثامن فينتابني شعور غريب وتختفي ابتسامتي وترفرف الأفكار فوق رأسي مثل الفراشات ترفرف فوق الأزهار.. فمتى أصل إلى الصف الثامن كي تعلو قامتي ويرتفع رأسي في الأفق؟ كم بطيئة أنت أيتها الأيام .. كم أتمنى أن أكون ساحراً لأقفز إلى السطر الأخير وأقف منتصب القامة أنظر إلى كل الأسراب على يسارى وأرى كل الرؤوس من أعلى .. سيكون الإحساس جميل من دون شك .. وفجأة أصحو من ذاكرتي وأفكاري على صوت المعلم وهو يقول بصوت مرتفع .. إنتظم .. أسبل .. إنتظم .. أسبل.. إستعد .. إسترح ونحن نردد خلفه ما يقول وبحركات بهلوانية جميلة ..

***

# سالم

كان سالم يجلس في السطر الأول من الصف, وكُنا حينها في الصف الخامس الإبتدائي.. وسالم تلميذ قصير القامة ولا يتكلم كثيراً.. وكان ينظر إلى المعلم وهو يشرح الدرس وكأنه مستمتع بما يسمع, وحينما تنظر إليه يبتسم.. دون سبب .. فقط يبتسم ويشيح بوجهه إلى الخلف وكأنه يريد أن يختبئ.. وسالم تلميذ ضعيف جداً ولا يفهم شرح المعلم ولا يجيب على الأسئلة.. ولم أره في حياتي يرفع إصبعه للإجابة على سؤال, إلا حينما كان يحك "قفاه" أو رأسه ... وكان يأتي كل صباح مبكراً يجلس مكانه ويفتح حقيبته ويخرج كتابه ودفتره وقلمه .. ولكنه لا يستخدمها ويكتفي بالنظر إليها وإلى المعلم وهو يشرح الدرس, وكأنه يفقه ما يسمع .. وإذا سأله المعلم فجأة يضع يده على رأسه ويبتسم .. أنا بصراحة لم أسمع صوته قط .. وكم كنت أود أن أسمع صوته.. ولكنه كان يكتفي بابتسامته المعهودة ولا ينبس ببنت شفه..

وفي أحد الأيام والجو حار جداً وقف معلم اللغة الإنجليزية يعلمنا وجبينه يندس عرقاً وعيناه محمرة من شدة حر لصيف .. طبعاً لم نكن حينها نعرف ما هو المكيّيف .. وكنا نكتفي بنسمات قليلة تهب من حين لآخر .. المهم .. أخذ المعلم يكتب على اللوح كلمات باللغة الإنجليزية ويقولها بصوت عالي ونحن نردد خلفه ما يقول .. ثم وبشكل فجائي سكت المعلم وتمعن في الصف ورفع حاجبيه وضم عينيه قليلاً ثم فرك عينه اليسرى وتنحنح وقال:

- مين فيكم يا أولاد بيعرف شو جمع كلمة "man"؟

فصمتَ الصفُ.. وهبطت السكينة على المكان فلا تسمع إلا أنفاسنا.. ولم يجب أحد .. وبقينا هكذا لحظات.. صمتٌ رهيب.. ثم فجأة إرتفع إصبع سالم إلى الأعلى.. فنظرنا إليه بدهشة واستغراب, وتسمر المعلم في مكانه ينظر إليه وقد صدم من هول الموقف..

سالم يرفع إصبعه؟! غريب! وعجيب! مممم... ها هو سالم يفقه شيئاً .. هكذا قال المعلم وهو يحادث نفسه وعلى شفتيه علت ابتسامة النصر.. لقد استطعتُ أن أعلم سالم شيئاً .. وهذا ليس بالأمر السهل .. لا أبداً .. لقد تطلب ذلك جهداً كبيراً .. مممم .. هكذا قال المعلم في نفسه وهو يحرك حاجبيه .. وأكمل يحاور ذاته بصوت لا يسمعه سواه:

مممم ...نعم علمت أني أستطيع أن أفعل شيئاً مع هذا التلميذ .. يالي من معلم عبقري ... علمت ذلك .. مممم..

ثم اتجه إلى سالم وقال له بلطف:

- نعم .. تفضل يا عزيزي سالم .. احكي .. قل ما لديك..

فأنزل سالم إصبعه وابتسم ابتسامته المعهوده .. وقال بصوت مكتوم يخرج من بطنه لا من حلقه:

- أريد أن أشرب ماء ..

وهنا تحطمت أحلام المعلم .. وكاد أن يسقط مغشياً عليه .. فتراجع خطوتين إلى الوراء .. وفرك أنفه بقوه ... وأحمر وجهه وانتفخت العروق في رقبته .. وصاح بأعلى صوته:

- يا وقِ! هذا وقت شرب الماء !؟ يخرب بيتك ما "أزنخك" ... "إنطم" محلك...

وصمت سالم.. وصمت الصفُ .. ولم تعد إبتسامته المعهودة على شفتيه.. واٍكمل المعلم الدرس .. ونحن نردد خلفه ما يقول... وأنا أنظر إلى ذلك الموقف .. وأقول في نفسي :

- أخيراً سمعتُ صوت سالم ...

***

# يا صباح يا فتاح !!

ساعات الصباح ... توزعُ الأرزاق .. يا صباح يا فتاح ... يا رب !! كنت أتمنى أن يكون يومي يوم سعيد ... يوم فيه تفاؤل ... ولكن وللأسف الشديد صحوتُ على يوم كنت أريد فيه ان أفعل خيراً للناس كنت أحلم بان الناس يريدون الخير لأنفسهم ولأطفالهم ... كيف لا وهم كل يوم يطالبونني بالعمل والجهد والكد... فلا ننام حتى نلبي المطالب ونسعى إلى الخير ونسعى إلى الأفضل .. كم كنت حزيناً عندما سمعت بهذا الأمر.. كم اعتصر حينها قلبي لما رأيت المشهد ... انتابتني حسرة لم تنتابني منذ زمان .. لم أكن أصدق ما سمعت لو أني رأيت بأم عيني.. ما هذا العبث؟ ما هذا الضمير الميت؟ وكيف نطالب بالمزيد والعطاء؟ وأين ديننا الحنيف؟ أين تعاليم محمد صلى الله عليه وسلم؟ ونطالب بالنصر؟ إن الأمم لا تنتصر بالجهل ولا بالحقد ولا بالخراب ... بل تنتصر بالحق والعلم والنور والنظام... لقد جئت إلى مكتبي في ساعات الصباح الباكره .. ولم أجلس على الكرسي بعد .. إلا والهاتف

يصرخ في وجهي !! قم ! قف ! تعال وانظر إلى احلامك !! تطلعاتك !! آمالك !!. نعم يا لها من حسرة وأنت ترى مثل هذا المشهد ... يا أسفاه ... لقد حزنت لما سمعت ورأيت أن احدى روضات أطفالنا .. مستقبلنا .. آملنا .. قد عاثوا فيها الفساد .. دمروا العاب الأطفال .. لم يتركوا شيئاً .. حتى رسومات الأطفال وألوانهم وأقلامهم خربوها ... ماذا سنقول لأطفالنا .. ماذا عسانا أن نفعل... أن نشتري من جديد؟ يا للعبث !! يا للعبث !! ويا لعبث العابثين !!

أيها الناس قولوا لمن يخربون روضات أطفالنا كفى!! كفى!! أيها المفسدون في الأرض! المخربون!! الحاقدون العابثون المستهترون... سيعاقبكم رب السماء... لا محال.. وسيحاسبكم ربكم ولن تفلتوا من العقاب ...أرجو من كل مسئول , أب في أسرة وشيخ في مسجد , وواعظ أن يوصلوا هذه الرسالة... كفى خرابًا أيها الناس ... هؤلاء أطفالنا ...أملنا الوحيد ... فلا تخربوا أملنا ..أرجوكم ...

***

# حيرةٌ

سألني أحد المعلمين وقال: "هل لك أن تخبرني من هو المعلم الجيد؟", سؤال سهل وجه إلي.. والإجابة عليه سهلة .. نعم ولم لا! فالمعلم الجيد هو ذلك المعلم الذي تعلم في الكلية أو الجامعة.. وهو الذي اكتسب العلم الملائم .. وهو الذي تدرب على كافة أساليب التدريس .. وتعلم كيف يتعامل مع التلاميذ .. وكيف يعلمهم .. المعلم الجيد هو الذي يمتلك العلم, فيعلمه وينقله للتلاميذ.. وللأطفال.. نعم هذا هو الجواب.. حقًا جواب سهل .. إذاً لماذا أصابتني الرهبة والحيرة ؟ لماذا لم أجبه في حينها؟ بل قلت له دعني أجيبك غداً .. ما الذي حيرني؟ فالجواب سهل.. ماذا دار في خلدي تلك الساعة؟ لقد خالجني شعور غريب .. وحامت في رأسي أفكار وتساؤلات .. فإذا كان المعلم الجيد هو ذاك الذي وصفته, فلماذا إذاً الحال سيئة؟ لماذا نجد ونرى الكثير من المشاكل مع أولادنا في المدارس؟ حتى الأولاد الجيدين نجدهم يستصعبون في أمور كثيرة كالتفكير المستقل والإستنتاج

والإستبصار.. لدينا نسبة عالية من الذين لم يكتسبوا القراءة والكتابة, فما الذي جرى؟ هل فعلاً المعلم الجيد هو ذاك الذي قلتُ عنه قبل قليل؟ وإن كان, فلماذا هذا التأخر والنكوص.. إذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أن ما قلته ليس صحيح!! هذه ليست الإجابة الملائمة على السؤال. لقد فهمت سبب حيرتي ورهبتي ... لذا لم أجبه في حينها .. لقد مر الوقت وتسارعت الساعات.. وها هو يقابلني مرة أخرى مبتسماً.. ينتظر مني الجواب .. فلا بد من الإجابة.. وأنا لا ادري ما الجواب الصحيح.. ورغم هذا.. قلت:

- في اعتقادي المعلم الجيد هو ذلك المعلم الذي يستطيع أن يثير التساؤل والحيرة لدى التلاميذ.. هو ذلك المعلم الذي لا يتعجل في إعطاء المعلومة أو الإجابة... بل يقدم الفرصة للتلميذ ليتساءل ويبحث ممم ويعطي الإمكانية للتلميذ بان يبحث عن المعلومة بذاته ... فالسؤال يساعدنا على التفكير.. والسؤال في كل شيء يعتبر وقود التفكير وهو محرك العقول

ونحن لا نحتاج إلى تخزين المعلومات.. بل نحتاج إلى التفكر فيها وفهمها واستنتاج العبر ... هل فهمتني ؟

وهكذا أنهيت إجابتي وأنا لا أعلم إن فهمني أم لا...

نظر إلي المعلمُ وقد اختفت ابتسامته .. وانكمش جبينه .. ثم هز رأسه وقال لي :

- إحم .. إحم .. شكراً جزيلاً .. إحم .. بارك الله فيك.. السلام عليكم ..

وسار في دربه وسرتُ في دربي ...

***

تم بحمد الله

# بديع القشاعلة كاتب وشاعر فلسطيني من مواليد النقب